ملامح بنية الإخفاق في مسرحيات يوسف الصائغ
(مسرحية البديل) مثالاً

د. أديب علوان كاظم
كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة :

شكلت بنية الإخفاق بمستوياتها الدلالية الذاتية والموضوعية إحدى الملامح المهمة التي أطرت بعض نصوص المسرح العراقي ، بوصفها القيمة المهيمنة على مختلف الأصعدة في ظل مناخات الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المأزوم في الداخل والخارج ،وهو ما دفع بهذه البنية التي تعد إحدى كشوفات الألسنية الحديثة، إلى التبلور بصوره واضحة، حتى انعكست على طبيعة تركيب البناء الدرامي ومن ثم شكلت عنصراً بؤرياً لتلك العناصر وأفرزت بعض الرموز والدلالات والصور التي تصب في الحقل الدلالي لبنية الإخفاق دون الركون لخلق بنية متفائلة ، ومن هذه الرؤية ترمي هذه الدراسة استجلاء ملامح بنية الإخفاق في نص مسرحية (البديل)* للكاتب المسرحي العراقي يوسف الصائغ**على وفق ما يتمتع به مصطلح (بنية الإخفاق) من حمولة مفاهيمية ومعرفية وإجرائية .تمثلت عبر مقولات مثل : (اليأس ــ الإحباط ــ العزلة ــ القلق) .في الوقت الذي مثل فيه النص قراءة معاصره تنهض من تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لتكتمل في رؤية الكاتب الإبداعية .

المقدمة :

مما لاشك فيه ان البنية الدرامية ما هي إلا بعض العناصر المؤتلفة مع بعضها، مثل :(الحبكة ــ الشخصية ــ اللغة ــ الفكرة) والمرتبة ترتيباً خاصاً لربط أجزاء النص المسرحي في نسيج عام لتطويع فكرة ما تعبر عن موقف الكاتب المسرحي وتجاربه المتوالدة إزاء الإنسان والواقع والكون،عبر رصده الخصائص الإنسانية الشاملة لتلك التجارب، إذ يمكن عد تلك العناصر على وفق منظورها أو مسردها النقدي المعيار الحقيقي لمناخاتها الفكرية والجمالية على تباين العصور والمذاهب ،ولا نختلف في كونها تحمل رسالة إنسانية فاعلة ومؤثره في المجتمعات على تباين مضامينها وأبعادها والحال أنها في نص مسرحيه (البديل) باتت محكومه بمناخات سياسية محبطه فلا ريب من كونها زودت المتلقي بتلك الرسائل لاسيما إنها سجلت حضورها الإبداعي سلفاً في ذهن الكاتب ومن ثم النص على المستويين الفكري والدرامي حدٍ سواء .

بنية الإخفاق في اللغة والاصطلاح :

وردت كلمة (أخفق) في لسان العرب لـ(ابن منظور) تحت مادة (خفقَ) بمعنى اضْطرب ، وخَفَقَ النجم : غابَ ... والخافقُ الكثير الاضطراب ... وأخْفَقَ الرجل : طلب حاجه فلم يضفرَ بها كالرجل إذا غزا ولم يغنم أو كالصائد إذا رجع ولم يصطد وطلب حاجه فأخْفَقَ ... الأخفاق أن يغزو فلا يغنم شيئاً ... أخفق القوم فَنيَ زادهم وأخفقَ الرجلُ قلَ ماله [١].

أما في الاصطلاح : فقد عرفه (نوربير سيلامي) : بإنه حاله نشعر بها عندما لا نبلغ الهدف الذي رسمناه لأنفسنا ، وعندما تخيب آمالنا [٢] .

كما يطلق (سعيد علوش) مصطلح (إخفاق التواصل) على تعذر التواصل وعدم بلوغه إلى هدفه عند المتلقي.وتعود أسبابه إلى التشويش / التناقض و(الإخفاق) معارضة لـ (التوافق) وفي ضوء هذا التعارض يتضح الإخفاق [٣].

اما (لطفي الشربيني) فيرى ان المصطلح يستخدم " لوصف حالات التأخر او التداعي في الوظائف البدنية والنفسية " [٤].

ويتفق اغلب الباحثين في هذا المجال على ان مصطلح الإخفاق يستدعي بعض المفاهيم التي تأتي لاحقاً (أي بعد الإخفاق مباشرةً) والتي تقع ضمن لائحة مفهوم الإخفاق وتتجاور معه ومن هذه المصطلحات : مصطلح الإحباط . والذي يحدث بسبب وجود تلك الإعاقات أو الكوابح (القوى) التي تحول دون إشباع بعض الدوافع النفسية لدى الفرد بشكل مباشر وصريح . والإحباط : مصطلح " يطلق على ظرف أو حالة أو عمل يحول بين المرء وتحقيق إحدى حاجاته الاجتماعية أو النفسية وغالباً ما يكون خارجي المنشأ أو من علة في ذات النفس " [٥].

التعريف الإجرائي لـ (بنية الإخفاق) :

هي البنية الدرامية التي تحيل الشخصيات إلى عدم بلوغ أهدافها المرجوة وإخفاقها في تحقيق امنياتها ورغباتها، بفعل عوائق ذاتية أو موضوعية يسوقها الكاتب المسرحي عبر عناصره البنائية.

ملخص المسرحية :

يطالعنا (الصائغ) بحكاية حقيقية *** تتوزع على ثلاثة فصول وتدور أحداثها حول قصة رجل إسرائيلي تجاوز الأربعين من العمر يعمل أستاذ طب (بروفيسور) ببحوث الأورام الخبيثة اوالسرطان، يرقد في المشفى ويعاني من مرض خطير في القلب وهو بحاجة الى نقل قلب خلال (٤٨) ساعة، ولعل الغريب في الحكاية وجود الشاب الفلسطيني (محمود عز الدين القسام) [٦] في مشفى قريب من الأول وهو في الثامن عشر من عمره ،أصيب برصاص الجنود الاسرئيليين بمؤخرة رأسه في أثناء قراءة قصيدته، حتى فشل الأطباء في علاجه فهم ينتظرون وفاته خلال (٢٤) ساعة ، الأمر الذي دعا زوجة الرجل الإسرائيلي (راشيل) إلى محاولة التفاوض مع ذوي الشاب الفلسطيني بدافع إنساني لنقل قلبه السليم إلى زوجها بعد ان وجه المذياع نداءً إلى الناس بذلك تبعاً للرأي القائل : " إذا كان الشاب ميتاً لماذا لا نعطيهم قلبه وننقذ الآخر" [٧]،والحال أن ذوي الشاب وتحديداً زوجته (مريم) وجدوا الصعوبة في التبرع بقلب ابنهم بسبب الممارسات الإسرائيلية اللا إنسانية حيال الشعب الفلسطيني .

المبحث الأول : بنية الإخفاق على المستوى الدلالي لعنوان النص المسرحي

تنهض القراءة الأولى لبنية الإخفاق في النص من منطوق أولي للعنوان (البديل) في افتتاحية النص اذ موضع (الصائغ) عنوانه في مكان المابين لثنائية (الحال وبديله) ليبقى في إطار احتمالية الدلالة المتوالدة التي لا تقر بحقيقة البديل ذالك إن تصدير عنوان مسرحية (البديل) يطرح رهانات الأسئلة حول ماهية البديل الأهم لثنائيات متجاورة تقع ضمن بنية الإخفاق في إطار مفهومي الحضور والغياب ضمن مدونة النص فدلالة العنوان لا تحيلنا الى مركز ثابت موثوق به يحقق بنية متفائلة للمتلقي ، اذ عَول (الصائغ) على حرية المدلول فهو تبنى دلالات المراوغة لحالة ما قبل الموت وما بعدة في ثنائية (الشاعر الفلسطيني /الطبيب الإسرائيلي) .

ولعل البحث عن الدلالة المعجمية لمفردة (البديل) يدلنا على أشكال متعددة من المعاني التي تصب في معنى واحد مثل :(العوض ــ أتخذ منه بدلاً ــ الشيء بالشيء ــ الشيء بغيره ــ الخَلَف والعِوَضُ) [٨]وهذا يقودنا إلى ان تكون الموافقة بالبدل حاضره لدى الطرفين لأهمية البديل عن المبدل منه بالنسبة لكل طرف . والحال هنا ان عملية الإبدال تمت دون رغبة احد الأطراف وهو طرف الزوجة (مريم) ولعل ما يدل على رفضها الواضح هو التصريح المتواصل بعدم الرضا والإحباط حيال ما يجري من حلول وصفقات فهي تعلن عن رفضها التوقيع على صفقة نقل قلب زوجها إلى جسد الطبيب الإسرائيلي مقابل إطلاق سراح مئتي معتقل من الطرف الفلسطيني ، إذ تصف هذه الحال

بنقص الوفاء لزوجها لاسيما انه حاضر لا يموت في ذاكرتها الحية ،كما هو الحال في الحوارات الآتية :

مريم : هو .. زوجي .. إن ذلك ابسط حقوقه ...
عبد الرحمن : ولكنك تعرفين جيداً انه غائب عن وعيه .. لا يسمع .. ولا يتكلم ..
مريم : ويح نفسي فهو في عرفكم . ميت مقدماً أما أنا فاعرف انه ما يـزال حيـاً .. وانـه سـمع ويسمع كل هذا الذي نقوله .. وهو بسبب ذلك يتألم .. لو لا انه لا يستطيع الكلام والاحتجاج ..
عبد الرحمان : ان هذا لمنتهى الجنون ؟
مريم : اش .. اش.. أخفض صوتك . فقد يسمعك ويزيده ذلك الماً .. ان نقص الوفاء اشد إيلاماً من الموت ..[٩]

وبشكلٍ مبكر عزز (الصائغ) تنامي بنية الإخفاق في دلالة العنوان عبر دعمه لموقف الزوجة (مريم) وحواراتها وذلك من خلال استدعائه لصوت الزوج (القتيل) الرافض لفكرة البـديل عبـر حوارات تدعو الى تكريس تلك البنية ومن ثم تسيدها في متن النص، فهي لا تكتفي بذلك بل سعت إلى تأكيد لوعة الزوج في انتظار مصيره بعد الموت لتقنع الآخرين بهواجسها المحبطة قبل الموافقة علـى توقيع نقل قلب زوجها :

مريم : أصغوا ..
الصوت : رأتني أليفة روحي وحيداً أشاحت .. وفي محنتي تركتني ..
مريم : ويلاه .. أسمعت يا أبي
الشيخ : لا لم اسمع شيئاً
الصوت : رأتني الحبيبة ملقى على دكة القدس نذراً
مددت لها عنقي ..
وصرخت .. أريحي انتظاري ،فما ذبحتني .. [١٠].

ومن هنا فقد عوّل (الصائغ) على فعل الأثر في سياق ملفوظ عنوان النص (البديل) وانعكاساته على متن النص بوصفه الرصيد المعرفي لتشكيل بنية الإخفاق في طبيعة عناصره الدرامية والفكريـة وبالتالي فان غياب دلالة العنوان(البديل) الحقيقي على طول خط أحداث المسرحية سجل عرقلة فـي مسار معاني النص نحو الاكتمال والتوحد فضلا عن خلخلة الإيقاع العام لتحقيق بنية متفائلة والركون نحو الاحتفاظ بتحقيق بنية مخفقة .في الوقت الذي عبرت به دلالة العنوان عن قـراءة تأويليـة عبـر امتزاجها بملامح السخرية من نهاية مصير الإنسان في ظل ضياع الأمن والسلام علـى الـرغم مـن تحقيق معادلة البديل بوصفها فرضاً لاحقاً لما يجري من أحداث.

المبحث الثاني : بنية الإخفاق على مستوى عناصر البناء الدرامي للنص المسرحي

ــ الحبكة

سعى (الصائغ) في صياغة حبكة نصه المسرحي الى التعامل المباشر مـع الواقـع السياسـي ورصد تفاصيلة الجزئية على قدر كبير من البنائية بوصفه منطلقاً أساسيا لمقولات النص حتـى بـات الأخير محكوماً بشرط سياسي عالي الترميز والإيحاء على مستوى دلالة الحدث والمتن الحامل لبنيـة الإخفاق .

والحال ان مسار حبكة النص تمت على وفق حيزين لتشكيل الحدث وتنظيم الأفعـال : الأول واقعي يتمثل برصد (الصائغ) لواقع الصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي. والآخر خيالي يتلخص بعمليـة الرهان لنقل قلب الشاب (الشاعر) الفلسطيني الى جسد الرجل (الطبيب) الإسرائيلي ، وفي كلا الحيزين تعاطى (الصائغ) مع الحدث من دون ان يتجاوز محليته وعالميته على حد سواء ليعبر عن واقع إنساني مأزوم يتسم بالشمولية في كل زمان ومكان وتحديداً الصراعات الداخلية التي يعيشها الإنسان الفلسطيني

، أو الإنسان حيثما كان في العالم ، لذا فهو يحتمل أكثر من قراءة من حيث صيرورته وحراك معطياته ، ذلك أن الحدث في النص يظل محوراً انعكاسياً لإخفاق الذات كنتيجة لأبعاد موضوعية تصدر عن دافع مشترك يجمع بين شخصيات النص في ظل الواقع السياسي المعتم على نحو يدعو إلى البحث عن الحقيقة .هذا ما جعل الصراع مستمراً يصل إلى نهاية المسرحية لا سيما وانه بدا قبل بدايتها .

أفاد (الصائغ) من بعض تقنيات المسرح الفكري(الذهني) **** في معالجة مادته الدرامية فجعل شخوصه تمتلك الذاكرة الحية في طرح الأفكار ومن ثم الجدل والمواجهة فهي تنطق بعبارات وتبوح بأفكار تتخذ من لغة المجاز والرمز سبيلاً للتعبير عن رغباتها وأحلامها المحبطة وانكساراتها المتواصلة بسبب عزلتها الذاتية في عدم تحقيق أهدافها لذلك حققت حبكة النص حواراً مع أربع فئات هي : الذات ، الآخر ، المجهول ، القارئ . على نحوٍ يتوسل ايقاض ذهن المتلقي لإدراك الفهم الحقيقي للقضية الفلسطينية حتى اتخذت هذه الأفكار حيزا ذا مدلولات عميقة كان لها تمركزها الواضح في ذهن (الصائغ) وتحديداً في نهاية المسرحية حين تهب الزوجة (مريم) روح زوجها (الشاعر) الشهيد صفة الخلود في جو مفحم باليأس والاستسلام عبر منولوج ذاتي مفترض :

مريم : دع نبضاتي تقرع كل الأبواب وتهز أسوار اليأس والاستسلام .. هيا قم لتغادر هذا السراب الرهيب وان كان جرحك ما يزال يضايقك ... اتكئ على زوجتك بكل ثقل أوجاعك هيا لك الحب والعافية لنخطو إلى طريق الخلاص ولنصرخ معاً انك حي لم تمت ولن تموت لن تموت لن تموت لن تموت ...(١١)

وبهذا الوصف اكتفى (الصائغ) بعرض وجهة نظره حيال قضايا فكريه وسياسية وذلك من خلال بناء هرمي ــ فني بعقدته وحله، يتوافق مع الرؤية الفكرية للنص، معيراً الاهتمام بالمواقف الفكرية (الجدلية) أكثر من الدرامية، هذا مما جعل الحركة الداخلية للأفكار (الذهنية) اسمي فاعلية من الحركة الخارجية للصور والمواقف الراكدة بوصفها تمثل خزيناً معرفيا يغذي تطور الحدث الدرامي.

ــ الشخصية

لجأ (الصائغ) في تشييد شخصيات نصه إلى تقنية الثنائيات المتضادة المتعلقة بالسير والحيوات والأحداث كوسيلة لتفعيل الحدث ومن ثم تفعيل الصراع الدرامي ، فهو وزع شخوص نصه الثمانية على وفق ثيم الإخفاق التي شكلت أحداث نصه إذ منح الشاب الفلسطيني مهنة (الشاعر) ومنح الرجل الإسرائيلي مهنة (الطب) عبر ثنائية (العاطفة / العقل) والحال ان كليهما يرقد في المشفى : الأول ميت سريرياً ولن يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة والثاني في طريقه الى ان يفقد الحياة هذا مما عزز تنامي بنية الإخفاق في الوقت الذي كانت بقية الشخصيات تنوب في الحديث عنها. ولعل ما هو جدير بالإشارة ان (الصائغ) استعار تقنية الشخصية اللاحواريه أو غير المرئية في تنضيد نصه بسبب غيابها او مرضها فهي لا تتغير ولا تتطور على الرغم من انها تسهم بشكل فعال في تنامي الحدث الدرامي وتطوره بوصفها شخصية إشكالية، كما هو الحال في شخصية (الشاب الفلسطيني ــ الشاعر) و(الرجل الإسرائيلي ــ الطبيب) .

والحال إن (الصائغ) اهتم بالتركيز على الخصائص الإنسانية الشاملة أو المشتركة في تجارب الشخصية المحبطة وسلوكها وتكوين طبائعها لما له من تأثير في آلية تفكير هذه الشخصيات، لهذا جاء تركيزه على عجز تلك الشخصية عن مواجهة قوى القهر الخارجي (الاجتماعي ــ السياسي) وعدم قدرتها على القيام بأية عمل رافض أو متمرد إزاء وضعها غير التحالف مع الذات والانزواء تحت ركام بنية الإخفاق كما هو الحال في حوار شخصية(مريم):

راشيل : الم تسمعي البيان قبل قليل ؟ ثمة إنسان يموت ان لم تجر له خلال الثماني والأربعين ساعة المتبقية من حياته عمليه يستبدلون له بها قلبه بقلب إنسان سليم ... ان حيـاة زوجـي الآن رهـن بقرار منك تتخذينه ..

مريم : ما هذا الذي تقولينه ؟ أي قرار؟

راشيل : قرار إنساني وحكيم ... ان تسمحي بنقل قلب زوجك بعد موته الى جسد زوجي .

مريم : كيف تجرؤين ؟

راشيل : لان ذلك هو الأمل الوحيد لإنقاذ زوجي من الموت... انه المعجزة

مريم : وزوجي ؟ ماذا عن حياة زوجي ؟ لما تسكتين ؟[١٢]

كما سعى (الصائغ) الى رسم صورة شاملة للشخصية المحبطة وذلك من خلال كشف علاقاتها المعقدة بالواقع السياسي المعاش مع تنامي مظاهر الألم والانسحاق على نحو يحقق القـراءة الحياديـة للنص كما هي الحال في شخصية (مريم) زوجة الشاعر الفلسطيني التي بقيت وحيده بعد فقدان زوجها حيث ينقطع اتصالها مع العالم والأشياء إلا مع هواجسها وأحلامها الخائبة ،إذ سعى (الصـائغ) الـى الاهتمام بها بوصفها محوراً لبنية الإخفاق فهي تخضع لعالم مأساوي بفعل قتل زوجها برصاص الجنود الإسرائيليين، أما شخصية (راشيل) زوجة الدكتور الإسرائيلي فهي الأخرى تعاني من إخفاقهـا دفعـة واحدة حيث اتسمت بالقلق والخوف والتطلع للخلاص من مصير زوجها حتى بدت منعزلة في إطـار ذاتها المتعبة في ظل هاجس انتظارها للقلب البديل وتحديداً في عجزها عن إنقاذ زوجها ولعل هذا ما جعلها عاجزة عن القيام بأية عمل آخر حيال وضعها الحالي في الوقت الذي تمنح فيه مهنة زوجها بعداً إنسانيا كما هو الحال في حوارها حين تصفهُ بأنة : إنسان عظيم ، يكافح عدواً مشتركاً اسمه السرطان ...[١٣]وبهذا الوصف يمكن عد كلا الشخصيتين واقعة تحت تأثير فعل الإخفاق لاسيما وأنهما انعكـاس سلبي محض لحالة الاغتراب التي تعيشها الشخصية بسبب هيمنة الفعل السياسي .

أما شخصية (الشيخ) فإنها الوجه الأخر لشخصية (مريم) في أزماتها ورفضها لكل ما يحـيط بها من ممارسات إسرائيلية فكلاهما يحمل هماً وجوديا يمتزج بالهم الوطني ليؤسـس بهمومـه كيانـاً بشرياً جديداً يرفض سلطة الجور والقتل والتعسف الحياتي .

ـ اللغة

اهتم (الصائغ) في بناء لغة نصه باللغة الشعرية وتحديداً حوارات صوت الشاعر بوصفها الأداة الطيعة في تفعيل الإيحاءات والرموز والصور المحبطة والتي تتغذى على وهج بنية الإخفاق إذ تؤسس لغة النص هاجس الإحساس بالخناق المستمر للحياة ،فهو سعى إلى تقنية البوح الـذاتي فـي حـوار الشخصية ، مما جعل لغة الحوار تتسم بالتدفق والانشطار الدلالي بما يخدم الفكرة المحوريـة للـنص المسرحي .

فهو يضَمن لغة نصه صوتاً آخر، هو صوت الشاعر او لربما صـوت الشـهيد الفلسـطيني، بوصفه العين الرقيبة الحية لما يجري من أحداث وصراع درامي ،حتى امتلك مركز الصـدارة فـي رؤيته الشعرية والدرامية، إذ يحمل هذا الصوت في طياته مفردات تنتمي من حيث دلالاتها الى بنيـة الإخفاق، مما احدث تعطيلا في عملية البحث عن بنية متفائلة:

الصوت : نداء هناك

سوء القصد هو السفاك ...

سمك يتعشى سمك

فبماذا يتعشى السماك ؟ (صمت للحظات)[١٤]

وفي مكان آخر من النص لا يتردد (الصائغ) من تضمين تكرار تلك المفردات المحبطة الا انه يمزجها بروح المقاومة والتضحية والتحذير :

الصوت : من أهل الصدق ... الى أهل الكذب ... نداء
دمنا لم يتحول إلى ماء ...
لكن الماء بأعيننا صار دماء(١٥)

كما لجا (الصائغ) الى تقسيم بنية الإخفاق لكلا الجانبين بشكل متساوٍ عبر مفردات (النـــداء ــ الموت ــ الدموع) وذلك من خلال تقسيم نداء الاستغاثة فهو ليس حكراً على الجانب الإسرائيلي ،مما جعل لغة الشخصية وحواراتها تتدفق على وفق أزماتها النفسية :

الصوت : نقتسم النداء ...
نقتسم الطاقة بين اثنين
وحين يغرسون شوكه في الرأس ...
ينبت غصن في القلب زهرتين ...
وهكذا يصير كل شيء بيننا بالدين ..
حتى دموع العين(١٦)

وعلى ما يبدو ان (الصائغ) لا يستغني عن استحضار ذاكرته الشعرية في بناء حوارات نصه اذ يمكن وصفها استجابة لميله نحو اللغة الشعرية بوصفة شاعراً قياساً بنتاجه المسرحي، لذلك حملـــت لغة النص طابعاً شعرياً .

وبهذا الوصف اظهر (الصائغ) تمايزاً واضحاً في لغة كل شخصية عبـــر وســـيلتي التعليـــق والإخبار عبر الجمل الطويلة او المبتورة لتعميق أبعاد الشخصية من خلال التعبير عـــن تصـــوراتها الراكزه في فضاء ذاتها وعوالمها الحلمية اليائسة للتعبير عن آرائها وأفكارها القلقة والمشوشة فاللغـــة المحبطة لم تكن حكراً على شخصية (مريم) فحسب وإنما كانت مشاعة لشخصية (راشيل) وبالعكس ، فلا عجب من ان يمنح (الصائغ) كلا الشخصيتين لغة عالية الفرض عبر تقنية الجدل المتواصل مـــن حيث دلالاتها ومعانيها المحبطة من حيث مسائلتها للحياة حتى مثلت رصيدها المعرفي في التراكم عبر تكرار هذه المسائلة في عالم مأساوي يشوبه التشاؤم والقلق كما هو الحال في الحوارات الآتية:

راشيل : انه القدر أيتها ألسيده الطيبة ... القدر الذي اوجب علينا ان نواجه هذا الأمتحان ..
مريم : ليس القدر .. زوجي لم يصب قضاء وقدراً ... بل أصابه احد جنودكم حين كان يقرأ قصيدته .. الجندي .. وليس القدر ..
راشيل : ومع هذا .. فالقدر هو الذي جعلنا نلتقي في هذا المكان ، ونواجه بعضنا لتقريـــر مصـــائر أناس نحبهم ..
مريم : ياللنفاق .. ليس ثمة علاقة تجمعني بك الآن .. الا تلك العلاقة بين القاتل والقتيل ..
راشيل : بل أواصر القرابة بين قتيلين .. فكري ... سيموت كلاهما ... فلماذا ترضين ان تؤدي دور القتل العمد ...(١٧)

على وفق هذه الرؤية اتخذت لغة النص عموماً طابعاً جدياً يتحرك عبر مستويين أحـــدهما ذو طابع شعري يميل إلى العاطفة ،والثاني ذو بعد فكري يميل إلى الشرح والتفسير ويسعى كلاهما إلـــى الإقناع بالأفكار التي يحملها النص المسرحي وصولا إلى هدف (الصائغ) الأخير وهو تحريـــر وعـــي المتلقي من اجل إدراك حجم الخراب الذي أصاب العالم .

المبحث الثالث : بنية الإخفاق على مستوى زمكانية النص المسرحي

ــ وحدة الزمان

لا ينفك (الصائغ) عن استخدامه لثنائية الزمن (الفيزيائي /النفسي) المتلازمة في رصده للأحداث والأشياء والمواقف اليائسة، حتى احتل كل منهما حيزه في البناء الدرامي للإشارة إلى معنى آخر من معاني بنية الإخفاق، في الوقت الذي حرص فيه على قصر زمن الفعل الدرامي في حكاية النص بـ (يوم أو يومين) بل حتى بات يقاس بأجزاء الساعة على لسان الشخصيات لتأكيد حالة الحصار النفسي على الذات والترقب لما يجري من أحداث وبالتالي عزز النص من تنامي الإحساس باللحظات الحرجة فضلاً عن تنامي رغبه المتلقي في مليء فراغات النص الزمنية، إذ يجد الباحث في هذا التوجه ما يشير إلى حالة التلازم والتضايف بين كلا الزمنين للوصول إلى وصف دقيق لبنية الإخفاق في زمن اللحظة الراهنة أو ألمعاشه.

ولعل التطلع لمحاكاة مرارة الزمن الفيزيائي لشخوص النص المسرحي بدا واضحاً عبر تكرار دلالاته المتواصلة التي تبشر بالموت بعد شيوعها في جسد النص وتحديداً في مفردات وجمل محبطة مثل : (لن يستمر في الحياة أكثر من أربع وعشرين ساعة ــ سيموت إن لم تجر له خلال الثماني والأربعين ساعة المتبقية من حياته عملية [١٨] سيبقى القرار الأخير لتلك المرأة الجالسة قرب زوجها تنتظر ساعة ترملها [١٩])

وعلى هذا النحو لم يتعامل (الصائغ) مع الزمن تعاملاً مجانياً في النص بل وضفه في سياق دلالي ينتمي إلى حالة الوجع النفسي والإحباط الذي تعيشه الشخصيات إزاء حريتها المستلبة وحقها في الحياة والحال إن بنية الإخفاق في دلالات وحدة الزمان تشير إلى أنة يتحرك في دوامه أبدية لا يمكن حسمها بسبب من الحصار النفسي على مستوى الذات والهوية الفلسطينية لا سيما إنها تنذر بخيبات أمل متلاحقة على الصعيد الذاتي للشخصية .

ــ وحدة المكان

لعل تقصي بنية الإخفاق في وحدة المكان يدلنا على الإحساس المضاعف بالأمكنة القلقة غير المرضية أو المطمئنة للنفس على طول خط أحداثه الدرامية، كالمستشفى مثلاً،فضلا عن مكان في سيارة إسعاف أو نقالة مصابين أو سيارة نجده، لاسيما ان (الصائغ) حرص على إن لا يتوزع الحدث على أماكن متعددة ليحافظ على حالة الترقب والخوف كمهيمنة بنائية (فكرية ودرامية) لا تخلو من دلاله وظيفية، إذ يمكن وصفها بأنها أماكن منغرسة في ثقافة الموت والقتل والإحباط بسبب من حالة الطوارئ والحرب، فالنص تبنى عملية انهيار الأمكنة التي تبعث التفاؤل والفرح فالشخصيات تبوح بذاتها لتعبر عن غربتها واغترابها على نحو متواصل في مكان مترجرج يقع في الخط المائل بين حياة السلام وكوارث الحرب فهو قلق بمكوناته ، إذ يسهم في تنامي بنية الفضاء الدلالي لمفهوم الإخفاق في مدونة النص .

إذ يبدأ (الصائغ) بوصف مكان الحدث عبر افتتاحية نصه المسرحي ليعطي انطباعاً أوليا بإشكالية المكان المعادي وعزلته وانزياحه عن الأماكن التي تبعث فينا الاطمئنان (الصحة ــ العافية ــ الأمان) بقوله :

يرتبك البث .. ويسمع صوت اطلاقات ناريه تزداد كثافة، مختلطة بأصوات هتافات مبهمة، يستمر ذلك برهة ثم تسمع سيارات نجده وإسعاف ... انه جانب من مستشفى وإذ يزداد صوت سيارة الإسعاف اقتراباً يدخل المسرح عدد من الرجال يدفعون نقاله يستلقي فوقها ، الرجل المصاب : محمود عز الدين القسام تلتحق به زوجته (مريم) ... [٢٠]

ولعل البحث عن القرانات المكانية لبنية الإخفاق ليس عسيراً فهو يدلنا على بعض المفردات المحبطة لوصف المكان ، فلا ريب من أنها تعيد أذهاننا إلى تسييد بنية الإخفاق في بداية ووسط ونهاية

مدونة النص بوصفها قيمه بنائية مهيمنة على جسده كإيذان بحلول ما يتوعد الإنسان الفلسطيني من دمار وخراب شامل لا يتوقف حتى اكتسبت أهميتها في مجرى الصراع الدرامي العام، كما هو الحال في المفردات الآتية : **الواقف عند حافة قبره** [٢١]ـ **رأتني الحبيبة ملقى على دكة القدس نذراً** [٢٢].

المبحث الرابع : بنية الإخفاق على المستوى الفكري للنص المسرحي

ـ الإخفاق النفسي

لا يخلو متن النص من عملية توقف إزاء ثنائية (الحياة / الموت) بوصفها رحلة شاقة عمادها المواجهة مع مصير الإنسان عبر ثنائية (الوجود / الفناء) اذ تنهض بنية الإخفاق من الرغبة في التخلص من فكرة الموت وإنقاذ الآخر دون جدوى، كما هو الحال في الحوارات الآتية:

مريم : أمنحية قلبك انت ... هذا والله ما كنت سافعلة ، لو كنت مكانك ..

راشيل : ولكن كيف ؟ كيف ؟

مريم : اقتلي نفسك ، وأوصي بان ينقلوا قلبك إليه ...

راشيل : يا للحقد .. فأنت إذن تقترحين الانتحار ؟

مريم سمه ما تشائين .. ولكن ذلك والله هو ما يجدر بزوجه تدعي لنفسها المحبة والوفاء .. [٢٣]

كما سعى (الصائغ) إلى إبراز ملامح الإخفاق النفسي ، إذ لا يسقط من أهمية الجانب النفسي المحبط لشخوصه مركزاً على الهم الوجودي والعزلة الحياتية التي يعيشها الإنسان في هذا العالم بسبب مما يحيطه من أخطار اجتماعية وسياسية هددت حياته الأمر الذي دعاه للتوق إلى بنيه متفائلة عبر مقولات النص .كما هو الحال في حوار شخصية (الشيخ) :

الشيخ : لا ادري . بعد سبعين عاماً من الرغبة في العيش بسلام .. ضاع الصواب والخطأ .. والتبس العدل بالمظالم .. وما عاد سهلاً على من هو مثلي الفصل بين ما ينبغي ان ارفضه .. أو أوافق عليه .. أتوسل إليكم .. دعوني قبل كل هذا أرى ولدي .. وأودعه الوداع الأخير ..[٢٤]

ومن هنا فان الإخفاق النفسي ينهض في النص من كون ان الذات لا تنأى بنفسها عن تقديم الأسئلة الوجودية المنعكسة المتعلقة بأفكار (الحياة ــ الموت ــ القتل ــ الدفاع عن الوطن ــ الحرية ــ فقدان الطمأنينة) ولعل هذه المفردات يمكن وصفها بأنها انعكاس سلبي محض لحالة الاغتراب والألم والعزلة الذاتية التي تعيشها الشخصية، بسبب من فشل الذات في تحقيق أهدافها الطامحة نحو الاستقرار .

على وفق هذه الرؤية سعى (الصائغ) إلى رصد عجز الشخصية في أن تهب حياتها معناها الحقيقي حين تصفها على لسان شخصية (الشيخ) بأنها ابلغ من الموت بسبب من حالة الاستلاب والقهر التي يعيشها الإنسان العربي :

الشيخ : الحياة معجزة . وهي اشد قدرة على إثارة الحيرة من الموت .. وجسد هذا المخلوق . الذي اسمه الإنسان . ما زال ولعله سيبقى لغزاً إلى الأبد .. [٢٥]

ـ الإخفاق الاجتماعي

لعل في حوارات النص ما يشير إلى حجم الخراب والإخفاق الاجتماعي الذي تتعرض له الشخصية في الحفاظ على علاقاتها الإنسانية وتحديداً في مسعى النص إلى تحقيق المصالحة مع الآخر بدافع الرابطة الإنسانية والاجتماعية ، إلا أن ثيمة الموت شكلت هاجساً أساسياً انتظمت حولها أسرة الشاعر (محمود عز الدين القسام) الفلسطينية بوصفها اصغر بنية مجتمعية يجمعها هم واحد هو الاحتلال الإسرائيلي، إذ جاز (الصائغ) لنفسه ان يؤشر هذا الخراب بعد رفض السياسات التوسعية والعدائية والاستبدادية المهيمنة التي أدت الى خراب العقل والعالم أو لربما ما تعرض له الوطن العربي ولعل هذا بدا واضحاً عبر حوار الزوجة (راشيل) في مسائلتها لمدير مستشفى القلب عن الممارسات الإسرائيلية في القتل بحق المواطنين العزل في فلسطين:

راشيل : أي قانون ؟ أين كان هذا القانون عندما أطلقتم عليه النار وأصبتموه في جمجمته ، وهو اعزل ...

المدير : (يغلق جهاز الهاتف) عفوك يا سيدي .. نحن لا نطلق النار على احد .. نحن مجرد أطباء ... مهمتنا علاج الناس وإنقاذهم من الموت ..

راشيل : بل تفعلون وتفعلون .. وإلا فقل لي من أطلق النار ؟ (٢٦)

ولعل هذا الحوار يبدو صادماً للمتلقي لما ألفناه من مواقف سلبية متراكمة في أرشيف الصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي، فقد بدت زوجة الطبيب (راشيل) أكثر حرصاً على حياة الفرد والمجتمع الفلسطيني ومحبة للسلام من اجل إنقاذ حياة زوجها وبالتالي كشف الحوار عن زيف وإخفاق العلاقات الإنسانية والاجتماعية على المستويين العام والخاص ومن هنا فثمة دعوه ملحة إلى إعادة النظر في هذه العلاقات على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع والدولة .

ــ الإخفاق السياسي

ان غياب المنقذ في تغيير العالم بشكل عام وتغيير الوضع الفلسطيني بشكلٍ خاص سجل غياباً ملحوضاً للبنية المتفائلة في النص لا سيما وان عملية التمسك بالبديل كانت وسيله للخلاص، او التخفيف من هموم وعذابات سياسية متعددة على اقل تقدير اذ ان تنامي بنية الإخفاق يبدو واضحا إزاء صعوبة مقترح (عبد الرحمن) الأخ الكبير في إطلاق سراح مئتين من المعتقلين في السجون الإسرائيلية مقابل عملية نقل قلب الشاب الفلسطيني زوج (مريم) الى جسم البروفيسور (الياهو شامير) :

مريم : رحماك أيها الأب .. لا تبارك صفقة ظالمة كهذه .. اذكر دم ابنك الذي لا يزال ينزف حتى الآن ..

الشيخ : ابداً يا ابنتي .. القرار يبقى قرارك أنت .. ولن يجرؤ أي منا على سلبك حق اتخاذ القرار .. إنما كان الله في عونك . لكي تخرجي من هذا الامتحان مرتاحة الضمير رافعة الجبين . (٢٧)

كما شغل تكرار مفردة (الموت) على لسان شخوص (الصائغ) مساحة واسعة في متن النص بدلالاتها النفسية المتداولة لدى المتلقي، إذ ترددت في (٥٧) موضعاً عبر السياق العام للقول في حوارات النص ،من هنا تصبح مفردة (الموت) لفظة محورية في النص ليقوم عليها بناؤه الدرامي حتى عززت من حضور بنية الإخفاق السياسي ،ولعل الغرض من هذا التكرار في الغالب هو التذكير بتوطن الخطر السياسي المتواصل إزاء الشعوب المستضعفة ومنها الشعب الفلسطيني ،كما هو الحال في الحوارات المتفرقة الآتية :

راشيل : العدو ، هو الموت(٢٨)

الشيخ :.. أين مصلحتي في أن يموت ابني ..(٢٩)

مريم : .. إن نقص الوفاء اشد إيلاماً من الموت ..(٣٠)

مريم : .. ونبره كهذه يمكن ان تعيد الانسجام إلى الكون وتوقض الموتى في القبور السود .. (٣١)

الخاتمة :

على وفق ما تقدم يخلص الباحث إلى القول بهيمنة الدلالات والصور المحبطة لنص مسرحية (البديل) على مستوى افتتاحية النص في قراءته الأولى المتمثلة بعنوانه (البديل) ، فضلاً عن تنامي بنية الإخفاق على مستوى بنيته الدرامية عبر عناصر النص (ألحبكه ــ الشخصية ــ اللغة). إذ لم تقتصر تداعيات ملامح بنية الإخفاق على طبيعة بنيته الدرامية بل امتدت لتشمل بنيته الزمكانيه عبر مقولات مرارة الزمن القائم بأبعاده النفسية المتباينة وقلق الأمكنة غير المرضيه على طول مضماره الدرامي، في ظل غياب الحلول الجذرية أو العقلانية لطبيعة الصراع القائم بين الطرف الفلسطيني والإسرائيلي ،علاوةً على تأشير الباحث لبنية الإخفاق في النص على مستوى بنيته الفكرية من خلال مظاهر الإخفاق النفسي والاجتماعي والسياسي، لاسيما إن النص بات محكوماً بشرطٍ

مرجعي ضاغط تمثل بفشل الحلول المقترحة للتعامل مع القضية الفلسطينية وبالتالي أسهم في ميل (الصائغ) نحو تبني بنيه مخفقة دون الركون إلى تحقيق بنيه متفائلة .

هوامش البحث وتعليقاته :

* يوسف الصائغ ، مسرحية البديل ، صحيفة الثورة ، بغداد : تموز ، في يوم : ١٠ ــ ١٦ ــ ٢٤/ ٧/ ١٩٩٥، ص٦.

** (١٩٣٣ــ ٢٠٠٥م) شاعر وكاتب مسرحي عراقي ولد في الموصل له مجاميع شعرية منشوره وبعض النصوص المسرحية التي حازت على على افضل نص مسرحي في مهرجان قرطاج في دورته الرابعة عام ١٩٨٩ وهي : مسرحية (الباب) ١٩٨٥ ، (ديزديمونه)١٩٨٩ ، اما مسرحية (العودة)١٩٨٦ فقد حازت على جائزة أفضل نص مسرحي من مركز المسرح العراقي عام ١٩٨٧.

(١).ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ط٣،(بيروت : دار إحياء التراث العربي ،ب، ت) ص١٥٧ ــ ١٥٩.

(٢).نوربير سيلامي وآخرون ،المعجم الموسوعي في علم النفس ،ت: وجيه اسعد (دمشق : وزارة الثقافة ،٢٠٠٠) ص١١٤.

(٣).سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (الدار البيضاء : ١٩٨٤) ص٥٠.

(٤).لطفي الشربيني ، موسوعة شرح المصطلحات النفسية ، تقديم ، حسين عبد الرزاق الجزائري (بيروت : دار النهضة العربية ،٢٠٠١) ص١٢٤.

(٥).نايف القيسي ، المعجم التربوي وعلم النفس ،ط١ (عمان :دار اسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦) ص١١.

*** استقى الشاعر والكاتب المسرحي العراقي يوسف الصائغ نص مسرحية (البديل) من قصة حقيقية نقلها عن جريدة (جيروزاليم بوست) الإسرائيلية وقعت قبل أسبوعين من نشرها .للمزيد ينظر : يوسف الصائغ ، المصدر السابق ، يوم : ١٠، ص٦.

(٦).استعار الكاتب المسرحي يوسف الصائغ هذا الاسم من تاريخ المقاومة الفلسطينية للدلالة على احد رموز حركات التحرر فيها وهو عز الدين القسام ويعود هذا الاختيار الى كونه يتلاءم بمعطياته السياسية والفكرية مع ظروف المرحلة ألراهنه التي نعيشها (الباحث) .

(٧).يوسف الصائغ ، المرجع السابق ، ص٦.

(٨).إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج١، ط٢(إيران : دار الدعوة ، ١٩٧٢) ص٤٤.

(٩).يوسف الصائغ ، المرجع السابق ، ٢٤، ص٦.

(١٠).يوسف الصائغ ، المرجع السابق ، ٢٤ ، ص٦ .

**** وهي " المسرحية التي لا تستهدف الإمتاع والتسلية فقط ، بل تعني في المحل الأول مناقشة الأفكار التي غالباً ما تتصل بالأوضاع الاجتماعية والسياسية المعاصرة " . كما هو الحال في مسرحيات برناردشو . ينظر : إبراهيم حمادة : معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، (القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧١) ص١٤٤.

(١١).يوسف الصائغ ، المرجع السابق ، يوم : ٢٤، ص٦.

(١٢).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠ ، ص٦.

(١٣).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠، ص٦ .

(١٤).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠، ص٦.

(١٥).يوسف الصائغ، المرجع السابق : ١٠، ص٦.

(١٦).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠ ، ص٦.

(١٧).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠ ، ص٦.

(١٨).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠ ، ص٦.

(١٩).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٦، ص٦.

(٢٠).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠ ، ص٦.

(٢١).يوسف الصائغ ،المرجع السابق : ١٦،ص٦.

(٢٢).يوسف الصائغ ، المرجع السابق :٢٤، ص٦.

(٢٣).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٠،ص٦.

(٢٤).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٦ ، ص٦.

(٢٥).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٦، ص٦.

(٢٦).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٦ ، ص٦.
(٢٧).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ٢٤ ،ص٦.
(٢٨).يوسف الصائغ ، المرجع السابق : ١٦، ص٦.
(٢٩).يوسف الصائغ ،المرجع السابق : ١٦، ص٦.
(٣٠).يوسف الصائغ ، المرجع السابق :٢٤،ص٦.
(٣١).يوسف الصائغ ، المرجع السابق ، ٢٤، ص٦.

مصادر البحث ومراجعه :

(١).ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ط٣ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ،ب، ت .
(٢). إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج١، ط٢، إيران : دار الدعوة ، ١٩٧٢.
(٣).إبراهيم حمادة : معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧١.
(٤).سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، الدار البيضاء : المكتبة الجامعية ، ١٩٨٤.
(٥).لطفي الشربيني ، موسوعة شرح المصطلحات النفسية ، تقديم ، حسين عبد الرزاق الجزائري ، بيروت : دار النهضة العربية ،٢٠٠١.
(٦)..نايف القيسي ، المعجم التربوي وعلم النفس ،ط١ ، عمان :دار اسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦.
(٧).نوربير سيلامي وآخرون ،المعجم الموسوعي في علم النفس ،ترجمة : وجيه اسعد ،دمشق : وزارة الثقافة ،٢٠٠٠.
(٨).. يوسف الصائغ ، مسرحية البديل ، صحيفة الثورة ، بغداد : تموز ، في يوم :١٠ ــ ١٦ ــ ٢٤/ ٧/ ١٩٩٥.

Abstract

Aspects of failure structure in Yusuf Al- Sai'igh's plays : The Substitute as a Model

' Failure structure ' has constituted in its som semantic subjective and objective levels one of the important features that has characterized some texts of Iraqi Theatre.It has posed itself as a dominant value in different levels economical , social and political both abroad and at home. this has motivated the structure in question towards Crystallizing clearly in a way that is reflected upon the nature of the construction of the dramatic structure and it constituted a focal element for those elements and yielded some symbols , indications and images that are involved in the semantic field of failure structure without reclining to creating an optimistic formation .From this view, the current study aims at investigating Aspects of failure structure in the text of the "substitute" play of the Iraqi playwright Yusuf Al- Sai'igh according to what the term "Failure structure " has got conceptual ,cognitive and procedural meaning ,which was represented by saying like " despair , frustration , isolation ,anxiety " in the time in which the text represents a Contemporary reading stemming from the Israeli- Palestinian Conflict in order for his creative view to get complete .

عمادة
كلية الآداب
للمراسلات والمعلومات
جامعة القادسية / كلية الآداب
الديوانية – العراق
ص.ب : ١٨١١